

الأخطاء المولدة وأثرها على مسار النهضة عند مالك بن نبي

The Impact of Generated Errors on Renaissance Path by Malik Ben Nabi

د / مراد بلخير *

مخبر الدراسات الشرعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)

belkhir.mourad1@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/22 | تاريخ القبول: 2022/06/24 | تاريخ النشر: 2022/07/15



ملخص: يبحث هذا المقال مفهوم الأخطاء المولدة في مسار النهضة عند مالك بن نبي، ويدخل هذا المفهوم في إطار فهم مشكلات الحضارة، وتتعلق إشكاليته بعوائق مشروع الانطلاق الحضاري، وكيف يمكن تحديدها وتجاوزها من خلال تشخيص هذا المفهوم والكشف عن طرق معالجته، حيث إن محاولات النهضة التي أخطأت أهدافها لم تركز غالبا على علاج أصل الداء، ولا يكون ذلك إلا بالفهم الصحيح لظاهرة التخلف الحضاري، ومشكلة الأخطاء المولدة أحد أهم قضايا ظاهرة التخلف.

وتوصل البحث إلى أن الأخطاء المولدة بالخلل في عاملي الارتقاء الروحي والوعي السنني، حيث إن البناء الحضاري من منظور مالك بن نبي هو نتاج تفاعل تكاملي بين عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء، يضبط هذا التفاعل العامل الروحي، ويوجهه النظر السنني السليم لأحداث التاريخ. فنجاح عملية التجديد الحضاري للأمة مرتبط بصفة جذرية بالتحول النوعي في المنظومة الثقافية للمسلم، التي تتوقى الأخطاء وتحلّى بالفعالية التكاملية بين الفرد والجماعة.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي؛ فكر إسلامي؛ حضارة إسلامية؛ سنن؛ ثقافة.

Abstract : This article examines the notion of errors generated in the path of “Renaissance” of Malik Ben Nabi, and the nature of solving the problems of “civilization”. It also relates to the problematic obstacles to the “plan of civilization”, and how can be challenged and overcome through the treatment of this concept and finding ways to deal with it, whereas the attempts made by the scholars and the goals are not often based on the solving of the problem, and this is only can be done through the authentic understanding of the phenomenon of cultural backwardness, and the problem of generated mistakes is one of the most important issues of underdevelopment.

The mistakes caused by the imbalance are related to the processes of spiritual elevation and Sunni consciousness. The cultural building of Malik bin Nabi's vision is the result of an integrated interaction between the worlds of ideas, people and objects. This interaction controls the spiritual factor and is guided by the correct Sunni view of the events of history. The success of the process of cultural renewal of the nation is radically linked to the qualitative transformation of the Muslim cultural system, which misses the mistakes and is characterized by integrated effectiveness between the individual and the community.

Keywords: Malik bin Nabi ; Islamic thought; Islamic civilization; Sunan; Culture.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

إن الإعداد للمشروع الإسلامي القويم لا بد أن يتحرى الوعي التاريخي والتخطيط المحكم، وينضبط بإيقاع الزمن الحاضر، دون الارتهان إلى النماذج الجاهزة والأطروحات العابرة لحدودها الجغرافية، وقد كان للفكر الأصيل حضوراً دائماً ومستمر في الحياة الفكرية للعالم الإسلامي، نتمثل نموذجاً مهماً منه في هذه الدراسة، هو مالك بن نبي، ولكم كانت رحلة أفكاره شاقّة لتصل إلى برّ التداول بين الباحثين والمفكرين، ولتُعطي لها القيمة اللازمة والفرصة لتطبيقها عملياً، حيث إن فكر مالك بن نبي أسس منظومة الفهم المرحلي لمسار نهضة الأمم، من خلال إعادة الاعتبار لدائرة الأفكار أو عالم الأفكار ضمن مؤشر النهضة، وكيف يمكن أن تكون هذه الأفكار ذات جدوى وفاعلية أو تكون ميتة وانتقامية.

بيد أن الخلل الذي يعتري مسار النهضة هو الانتقال من عالم الأفكار إلى عالم الأشخاص تقديساً وتصنيماً، والاستسلام لحالات تشويه المنجز الحضاري عن طريق طمس ملامحه الروحية، والتركيز على نسقه المادي الهندسي الذي يبعث حالة من النفور عنه متى تقادم نفعه، وانطمس رسمه.

ثم إن أهم ما يطرأ على هذا المسار النهضوي هو تدمير المنجز الحضاري، باجترار نفس المطبّات، والوقوع في نفس الأخطاء، دون رعي للدرس التاريخي، وهو ما يعبر عنه مالك بن نبي تحت مسمى "الأخطاء المولدة"، وهو مصطلح جديد اعتنى مالك بن نبي بإبراز مفهومه، وكان يسترجعه في ثنايا تحليله لمرحلة الانحطاط.

1.1. إشكالية البحث:

ينطلق الباحث من إشكالية محورية تتعلق بمشروع الانطلاق الحضاري، حيث إن مالك بن نبي قد أبرز عوامل النهوض وحل نظرياته، ومع ذلك فإن مسار النهضة ومُنجزها يمكن أن يخبو، ونلاحظ منحى السقوط يميل بذلك المنجز الضخم نتيجة لما سماه مالك بن نبي بالأخطاء المولدة، وهذا الجانب في فقه الحضارة يكاد يكون مغيباً في دراسة أفكار مالك بن نبي، فكيف يمكن اكتشاف تلك الأخطاء؟ وما هي آثارها على مسار النهضة؟ وكيف يمكن التعامل معها؟

2.1. أسباب اختيار الموضوع:

- إن فكر مالك بن نبي فكرٌ خصب، تتجدد منافعه كلما قرأناه بنفس متجدد يراعي الزمان الحاضر لقارئه، والإسقاط السليم في واقعه، ومع أن الفكر الإسلامي حالياً أغرق في التفتيش عن الحلول الملائمة للمشكلات المعاصرة، لكنه أهمل البحث في نقطة مهمة ومفصلية تتعلق بأسباب تلك الأزمات وخلفياتها، فتشخيص عوامل الانحطاط ينبغي أن يكون الدافع الأول للباحثين للاهتمام به والعناية بقضاياها.

- في خضم معترك التدافع الحضاري نلاحظ عدم التناسب بين الجهود الدعوية والإصلاحية الفردية والجماعية، وبين النتائج والآثار المرجوة والمتوقعة منها على المدى القريب أو البعيد، والخلل في عدم تقييم التجارب وعدم التنبه للأخطاء المرتكبة.

3.1. أهمية البحث:

- لا تخفى أهمية التنظير الثقافي في قراءة ظواهر التخلف والقابلية للاستضعاف، ومالك بن نبي كان رائد هذا الميدان، حيث كان فكره يستجلي أحداث التاريخ تحليلاً وتعليلاً، ويقف على وقائع الحاضر تفسيراً وتوجيهاً.

- إن الاعتناء بالأخطاء الماضية، والبحث عن سبل الوقاية منها يقي من حالة التقهقر الحضاري الذي ينتج عن ذبول الحيوية الاجتهادية لدى النخب القيادية، ووقوعها في أسر الاستلاب التنافري للنماذج الحضارية التاريخية منها والمعاصرة؛ مما يؤدي بها إلى الركون لنفس المسارات الفاشلة ثقةً في أشخاصها، ورجاءً في إعادة إحياءها بعد أن أثبتت تلك المسارات فشلها.

4.1. منهج البحث:

تعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بجمع أصول الأخطاء المولدة، وهي مرحلة التشخيص في البحث، وتحليلها واستقصاء آثارها على الواقع، ثم البحث في كيفية علاجها عن طريق استجماع الحلول الملائمة لها من فكر مالك بن نبي.

والبحث في مصطلح "الأخطاء المولدة" سيركز على أفكار مالك بن نبي المبثوثة في كتبه الثلاث: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، وشروط النهضة، ووجهة العالم الإسلامي، لأنها -في رأي الباحث- قد جسدت الكثير من النماذج التاريخية والواقعية لهذا المصطلح، وفيها استشهاد بالكثير من التجارب الثورية والإصلاحية العالمية، دون إهمال كتب مالك بن نبي الأخرى التي أشارت لهذا المفهوم.

5.1. خطة البحث:

تم تقسيم خطة البحث إلى تمهيد، ومبحثين، وخاتمة، تطرق التمهيد لشرح مفهومي الأخطاء المولدة والنهضة، واعتنى المبحث الأول بتشخيص الأخطاء المولدة، واحتوى على ثلاثة مطالب، أما المبحث الثاني فتطرق لعلاج الأخطاء المولدة في ثلاثة مطالب.

2. مفهوم الأخطاء المولدة:

1.2 تعريف الخطأ:

الخطأ يدل على التعدي ومجاوزة حد الصواب، يقال: أخطأ إذا تعدى الصواب، وخطئ يخطئ إذا أذنب، لأنه يترك الوجه الخير (ابن فارس أحمد، 2008، ص626)، وقال الكفوي (1998، ص424) في الكليات: «الخطأ هو ثبوت الصورة المضادة للحق، بحيث لا يزول بسرعة. وقيل: هو العدول عن الجهة».

فالاستعمال اللغوي يدلنا على مستويين من الخطأ، الأول بمعنى الغلط وعدم تعمله، والثاني بمعنى التعدي والتعمد، وفي لسان العرب (ابن منظور، د.ت، ج1/ص65) يقال لمن أراد شيئاً ففعل غيره أو فعل غير الصواب: أخطأ، أي: غلط، كما يقال لمن قصد ذلك.

أما عن الاستعمال الشرعي للخطأ، فقال ابن رجب (ابن رجب، 1408هـ، ص374): «الخطأ: هو أن

يقصد بفعله شيئاً فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلماً»، فالقصد هو معيار التفرقة بين الخطأ الذي يترتب عليه العتاب، والخطأ الذي يتسامح فيه الشرع.

2.2 الخطأ المولد عند مالك بن نبي :

فكرة الخطأ المولد عند مالك بن نبي تعالج الخلل الذي يتطرق لمسار النهضة فيعيق تقدمها وتطورها، فهو مجموع العوائق الداخلية والخارجية التي تسربت إلينا من عوالم خارجية، وساهمت في عدم التمكين الحضاري للأمة وقضت على فعاليتها، فقد يكون الخطأ « أفرزه المجتمع، أو حُقِنَ به من الخارج حتى صار جزءاً من كيانه » (مالك بن نبي، 1978، ص 18).

يقول مالك بن نبي في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" (1988، ص 122): « نواجه نحن في المجتمع الإسلامي في عهد ما بعد التحضر أخطاء مولدة؛ أي إنها أتت إليه من عالم ثقافي آخر، قام بدور المولد » وهذا العالم الثقافي الآخر له امتداد داخلي يتعلق بالنزعة الذاتية والحمية القطرية النفسية، وامتداد خارجي يتعلق بصراع النفوذ والسيطرة وتدمير المنجز الحضاري الإسلامي، فالمجتمع الإسلامي انطبع منذ البعثة النبوية بعالمه الثقافي المتشبع بأخلاق النبوة، ومعايير العدل والإنصاف، والصدق والمساواة، ومحاربة الظلم والطغيان، ليوافقه في مراحل تاريخية متعددة تحديات ثقافية، وأفكاراً واردة من خارج عالمه الثقافي، وانطباعها فيه تدريجياً أحدثت تلك الأخطاء المولدة.

وتسرب الأخطاء المولدة في المجتمعات الإسلامية بسبب أن لها قابلية للغزو الثقافي، إذ تم تدمير خصوصية الذات الإسلامية، وأعيدت صياغتها ضمن القوالب الغربية، فتغلب عالم الأشخاص على عالم الأفكار، يقول مالك بن نبي (مالك بن نبي، 1988، ص 123): « هذه النزعة في الوسط الإسلامي التي لا تصنع الأحكام طبقاً لعالم الأفكار بل تصنعها طبقاً لعالم الأشخاص، هي معروفة تماماً من الاستعمار، وإن نشاطه على الخريطة السياسية يستخدم باستمرار معطيات خريطة نفسية، وعلى ذلك فإن كل تقنية الأخطاء المولدة تعتمد على هذا ».

ومن طرق العلاج الحتمية إعادة تشكيل الوعي التاريخي بالحضارة الغربية، لاكتشاف فقرها المرجعي في صناعة النموذج الحضاري النزيه الذي يمكن أن يقتدى به، دون الاكتفاء بتلك الصورة المنمقة للمظاهر المادية في الحضارة الغربية؛ ولذا فمالك بن نبي ينظر إلى الثقافة الأوروبية على أنها ثقافة مادية تسيطر عليها النزعة المادية، فهي ليست ثقافة عالمية تُشبع حاجات الإنسان الروحية والمادية (مالك بن نبي، 1986، ص 126).

كما ينبغي التنبيه عند دراسة أخطاء الماضين ومسارات الغلط في الإصلاح إلى أهمية التفريق بين «الخطأ السياسي أو العسكري الذي اجتهد صاحبه في طلب الحق، والتزم قواعد الشرع في مسعاه، وبين الخطيئة الشرعية والمبدئية التي لم يبذل صاحبها جهداً في طلب الحق، ولا التزم مبادئ الشرع في أول أمره» (محمد الشنقيطي، 2017، ص 184)، فالمؤاخذه على الخطأ في الحالة الأولى لا تتساوى مع الحالة

الثانية، رغم الاشتراك في مفهوم مجانبية الصواب ومحايدة الحق؛ لأن المجتهد في طلب الحق بوسائله المشروعة قد يخطئ هدفه، لكنه يؤجر على بذله واجتهاده (البخاري، ومسلم، رقم 6919، 1716)، بخلاف غيره ممن لم يتحرر الصواب ولا انضبط بمعايير الشرع.

3.2 أهمية دراسة الأخطاء المولدة:

تدخل أهمية دراسة الأخطاء المولدة في صلب مشروع مالك بن نبي المتعلق بـ"مشكلات الحضارة"، فالداء الذي تعاني منه النهضة الحضارية يحتاج إلى تشخيص سليم، وهو ما عالجه في العديد من القضايا الفكرية التي بسطها في مجموع كتبه، وما دراسة الأخطاء المولدة إلا جزء مهم من هذا التشخيص.

ويرى بن نبي (1986، ص 44) أن فشل كل محاولات النهضة التي بدأت منذ القرن التاسع عشر كانت بسبب عدم تحديد الداء بدقة، فالمحاولات النهضوية أخطأت أهدافها؛ لأنها لم تركز على علاج أصل الداء، فمرة يتم التركيز على الاستعمار والجهل، ومرة على الفقر والبؤس، ومرة على انعدام التنظيم واختلال الاقتصاد والسياسة.

والحقيقة أن كل المحاولات تبوء بفشل ذريع أو بنجاح ناقص، لأن قانون المدافعة الداخلي للإصلاح قد أدى دورا فعالا في إفشال كل المحاولات، والمشكلة أن أحدا لم يتنبه له أو حتى لتشخيصه ولفت الانتباه له لولا أن مالك بن نبي نبه عليه وعلى خطورته.

4.2 مفهوم النهضة:

يدور مفهوم النهضة حول الارتقاء إلى معالي الأمور، والأخذ بالقوة والحزم، كانهوض للقتال، فتستعمل مثلا عبارة: ناهضة الرجل، وهم بنو أبيه الذين يغضبون له ويذودون عنه (ابن فارس، 2008، ص 875).

وبالنسبة لمفهوم النهضة المعاصر، فإنه لا يبعد كثيرا عن أصالة معناه اللغوي، لكنه ارتبط بالكلمة الأجنبية "Renaissance" التي برزت بشكل كبير عقب الثورة الفرنسية، ومعناها "ميلاد جديد"، حيث استخدمها الأوربيون للدلالة على فترة معينة من تاريخهم، وما عرفته من تحولات سياسية واقتصادية، وما واكب هذه التحولات من تجديد في مجال الدين والفن والفلسفة والعلوم (محمد وقيدى، وحميدة النيفر، 2002، ص 90).

ولم يغب العامل الديني عن تكوين هذا المصطلح وتشكله الفلسفي، حيث إن النهضة الأوروبية كانت في حقيقتها ثورة ضد تسلط الكنيسة الكاثوليكية وتعطيلها لنشاط العقل وبحثه في الإلهيات؛ فبرزت حركة الإصلاح الديني البروتستانتية التي تُعتبر ثورة من أجل استرداد الحرية الدينية، بينما استبد مفهوم النهضة بالإصلاح السياسي والانفتاح الاجتماعي (كرين بيتون، 1984، ص 31).

وفي حديث مالك بن نبي عن النهضة الحضارية ومعادلتها الثلاثية، نجد أنه جعل الإنسان محورَ الفعلية في حركة النهضة؛ لتحقيق الاستخلاف في الأرض على وجهه المطلوب، وفي هذا الصدد ينبغي

الانتباه إلى أنه اشترط في هذا "الإنسان" أن يكون ذا فعالية في الحركة التغييرية، ولن تحصل له الفعالية ما لم يتمتع برصيد ثقافي وقيمي، يكون الموجه له، وهذا ما ينبغي أن يكون « المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية، لأن تحقيقه هو الذي يوجّد الشرط الأول لتحويل الجهود في نطاق هذه النهضة إلى جهود فعّالة » (مالك بن نبي، 1985، ص 101).

والنهضة الحضارية عند مالك بن نبي لا بد لها من عاملين، عامل الارتقاء الروحي الذي ينعكس عبر الفكرة الدينية، والتي تعتبر الوسيط الكيميائي لمعالجة وتفاعل مكونات الحضارة، وعامل الوعي السنني؛ فإن الغفلة عن السنن الإلهية قاضية لا محالة على أي ارتقاء حضاري، ومن الغفلة السننية أن يتم التغاضي عن الأخطاء القاتلة، أو تبريرها تبريرا ساذجا. والخلل في هاذين العاملين تتفرع عنه الأخطاء المولدة، وهو ما سيتم بسطه في هذا البحث عند دراسة فكر بن نبي.

والسبب في ربط الأخطاء المولدة بمسار النهضة هو أن منظومة مالك بن نبي الفكرية تقوم على بعدين متكاملين، هما الظاهرة والمنهج، فتصورُ المنهج الصحيح ينبنى على حسن تفسير الظاهرة المتعلقة به، يقول مالك بن نبي (1984، ص 62): « إذا أمكننا أن نفهم ميكانيكية الظاهرة، أمكننا أن نتصور المنهج » وتطبيقها بالنسبة لمنهج النهوض الحضاري هو الفهم الصحيح لظاهرة التخلف الحضاري، ومشكلة الأخطاء المولدة هي أحد أهم قضايا ظاهرة التخلف التي ينبغي الإحاطة بها.

3. تشخيص الأخطاء المولدة:

شغلت قضية تشخيص الداء الحضاري عند مالك بن نبي حيزا مهما من أفكاره، ولا غرابة في ذلك مادام أن العلاج لا يمكن أن يكون فعالا إذا أخطأ الطبيب في مرحلة التشخيص، فقد يصير الدواء داء والعلاج مرضا عضالا، كما أن الاقتصار على أعراض الداء دون البحث عن أسبابه لا يقل خطورة عما سبق، كمن هو مصاب « بالسل الجرثومي فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بمكافحة الحمى عند المريض » (مالك بن نبي، 1986، ص 45).

وسيتّم بسطُ تشخيص مالك بن نبي للأخطاء المُعطلة لقيام النهضة الحضارية من خلال ثلاث مجالات: الأخطاء الذاتية، والأخطاء النفسية، والأخطاء السياسية، وفي كل مجال تم تحديد مسألتين في تشخيص داء الأخطاء المولدة.

1.3 الأخطاء الذاتية:

1.1.3 العقلية الذرية في تشخيص المشكلة:

تحدث مالك بن نبي عن الخلل الحاصل في تشخيص حقيقة المشكلة التي تعيق النهوض الحضاري للأمة، حيث إن رواد الإصلاح كانوا في تحليلهم لمكمن الخطأ يعانون من الذاتية المهيمنة على أفكارهم، « وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا » (مالك بن نبي، 1986، ص 88)، فغياب الرؤية المتكاملة التي تدرس المشكلات باعتبارها مترابطة مع بعضها البعض ارتباطا عضويا؛ يجعل كل مشكلة جزئية نتيجة لمجموعة من المشكلات السابقة لها وسببا جزئيا لما بعدها، وطول هذه السلسلة وترباطها يمنع من وضوح

أصل المشكلة ومنطلقها.

إن الذاتية المهيمنة على النظرة الصحيحة هي التي تجعل التشخيص في حد ذاته مشكلة حقيقية؛ فنجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته، « فرأي رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تُحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ، على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض، بل يتحدث عن أعراضه، وقد نتج عن هذا أنهم منذ خمسين عاما لا يعالجون المرض، وإنما يعالجون الأعراض » (مالك بن نبي، 1986أ، ص41).

وفي حالة الاستعمار الفرنسي للجزائر، فإن مالك بن نبي عالج هذه القضية في ما علق بذهنية الجزائري المستعمر، وكيف أنه ينظر للمشكلة من ثلاث نواح منفصلة العرى، وهي أننا « لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون، لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء، لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا » (مالك بن نبي، 1986ب، ص89)، وبعد تحليله لهاته « الأدوار الغنائية الثلاثة، وهي العملة الشائعة التي يُفسَّر بها حسنوا عجزهم » (مالك بن نبي، 1986ب، ص89) وجد بأن أيا منها لا يمكن أن يقف حاجزا أمام التحرر والانعقاد، بعد استعراضه لأمثلة من واقع من يدعون أن الجهل والفقر والاستعمار هو أساس المشكلة، والحقيقة أن هذه القضايا الثلاث إنما هي مترتبة على سبب واحد نابع من ذاتية الشخص المستعمر ألا وهو "القابلية للاستعمار"، فلكي نتحرر من الاستعمار وتوابعه المتمثلة في الجهل والفقر ينبغي أن نتحرر من سببه وهو القابلية للاستعمار.

فالقابلية للاستعمار هي جملة أوضاع وشروط فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية، تضع المجتمع في حالة من الضعف والقصور والعجز إزاء التحديات المحيطة به، فيجد نفسه في حالة وهن حضاري يفقده القدرة على رد التحديات ويخضع لها مكرها (الطيب برغوث، 2004أ، ص35).

وبإسقاط ما سبق تحصيله من فكرة مالك بن نبي على واقع الشعوب الخاضعة بالاستعمار أو بالتسلط والظلم والطغيان نجد نفس المسار التاريخي، حيث كانت الأجواء مُهيَّنة لتلك النتيجة الحتمية، ولهذا ينظر مالك بن نبي إلى أن الاستعمار "ضرورة تاريخية" (1986ب، ص93) في بعض الأحيان لإيقاظ الهمم والتخلص من أسبابه.

فكثير من المجتمعات العربية والإسلامية التي تخلصت من الكيان الاستعماري وأخرجته من أراضيها، لم تحسن التخلص من روح الاستعمار التي لم تبرح عقول أفرادها ولا نفسياتهم ولا ثقافتهم (محمد باي، 2006، ص128).

والواجب الذي يقع على عاتق المثقف هو أن يكون على بصيرة بالظروف التي تُنتج الاستعمار؛ فيلعبن الحرب عليها قولاً وكتابة، وأن يتمكن من حسن التنبؤ بمعامل القابلية للاستعمار في مجتمعه.

2.1.3. غياب النقد الذاتي :

تعاني الكثير من مشاريع النهضة العربية من غياب النقد الذاتي الذي يُمكنُ من معرفة الأخطاء والثغرات لأجل مراجعتها بين الحين والآخر، مما يساعد على مواصلة السير في طريق النهضة وفق المسالك السليمة، كما يقي من تكرار نفس الأخطاء (محمد لعاطف، 2007، ص 47).

وأهم أثر لتفعيل النقد الذاتي هو الخروج من إشكالية تعليق سبب الهزيمة على الطرف الخارجي، وإبقاء السبب في ذاتية المسلم أو الحركة الإسلامية، فالاستعمار والعامل الأجنبي عموما لم يكن ليتمكن من التأثير في حصوننا إلا عندما وجد فيها شرخا تمكن من خلاله من التسرب في داخلنا.

وهكذا يحاول زعماء الحركة الحديثة أن يلصقوا أسباب عطلهم بالاستعمار، ولكن ذلك ليس ضربا من التعلل، إذ يقصدون من ذلك الهرب من مسؤوليتهم الحقيقية، ولقد شاركهم في تعللهم أيضا دعاة الحركة الإصلاحية، أولئك الذين لم يبحثوا مطلقا عن الأسباب الداخلية لعجزهم، بل اكتفوا بإسناد التبعية إلى السلطة الأجنبية (مالك بن نبي، 1986، ص 70).

فالنقد الذاتي ضرورة أيضا في حياة الداعية المصلح، لتقويم المسار والمحافظة على صحة الهدف، ومن النقد الذاتي الاستماع للملاحظات النقدية بكل حرص، وهو ما من شأنه أن يزيد الثقة في انسجام الطبقة المحكومة مع الحاكم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه « حينما رأى أعرابيا يرفض السمع والطاعة ذات يوم، لم يبحث عن اضطهاد لهذا المعاند، بل عن تفسير قُدم إليه في قطعة من القماش، استوجب أخذها من نصيب ولده من الغنائم ليكتمل بها جلبابه؛ لأنه طويل القامة » (مالك بن نبي، 1988، ص 133).

إن النقد الذاتي يكون في غاية الإنصاف حينما يوازن بين الصواب والخطأ في فكر الفرد ومسار الجماعة، وهذا ما يُمكنُ ملاحظته في علاقة مالك بن نبي بالحركة الإصلاحية التي كان عبد الحميد بن باديس رائدا لها، حيث وازن بين الجهد التربوي والتعليمي لجمعية العلماء المسلمين التي أسسها ابن باديس من جهة، ومواقفها السياسية من جهة أخرى، فلئن أعجب مالك بن نبي بابن باديس المفسر والمصلح والمربي إلا أنه كان شديد النقد له في حضوره لمؤتمر 1936م ولأتباعه في كتابه "العفن"، وخلاصته أنه انتقد سياسة الليونة مع الاستعمار الفرنسي ومطاوعته في مسألة الاندماج السياسي (عمر مسقاوي، مالك بن نبي، 2013، 2007، ص 174، ص 45)، في حين أنه كان يتطلب من جمعية العلماء أن تقوم بمراجعة نقدية لتقويم اختياراتها السياسية، بدلا من المواجهة ورفض التعامل مع مالك بن نبي، حيث يُعتبر هذا الصدام أحد الأسباب التي كانت حاجزا أمام انتشار أفكاره في الوسط الإسلامي التابع فكريا للجمعية لحد الآن.

2.3 الأخطاء النفسية:

1.2.3 التبرير المطلق للأخطاء:

المقصود بالتبرير هو محاولة البحث المضني عن حجج وبراهين لغرض إفحام الغير، وإثبات حقائق إسلامية لا حاجة بها غالباً، والتي لا تفيد في تغيير الواقع المتردي في شيء (محمد باي، 2006، ص118).

إن أزمة التبرير تبلغ غايتها في الإفساد حينما ترتبط باجتهاادات خاطئة ضمن إطار العمل الإسلامي، ثم تصبغ بصبغة القداسة حتى يقتدى بها.

وعالج مالك بن نبي هذه المشكلة في إطار أزمة المثقف العربي الذي يلجأ إلى التعلق الواهم بالكم، خصوصاً عند الذين تأثروا بالثقافة الغربية، ومديح الوافد الثقافي بكلمات رنانة وعبارات جذابة، أملاً في أن يرقى بها مُرتقاهم « وتلك وسيلة رشيقة مناسبة تُخفي مواضع النقص والاختلال، فتجمل الأخطاء، وتستتر العجز بستار من البلاغة المزعومة » (مالك بن نبي، 1986، ص60).

إن نهج تجميل الأخطاء وتبرير الكبوات رغم ما فيه ملحظ الاعتذار وتلمس صواب القصد وحسن النية، إلا أنه جنى على التاريخ الإسلامي جناية عظيمة، خصوصاً في قراءة تاريخ الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وما جرى من أحداث فكان منهم المصيب والمخطئ، إلا أن التبرير للمخطئ في خطئه ومساوئه بالمصيب في صوابه يعد ضرباً من التعدي على قانون الحكم بالعدل والإنصاف، وخلطاً بين المبادئ والأشخاص، ف« الانفعال السائد في الدفاع عن السلف قد أهدر قدسية المبادئ حرصاً على مكانة الأشخاص، واستحال رداً للغلو بغلو، مع تعميم وتهويل يساوي بين عثمان وكاتبه مروان، وبين عمار وقتله أبي الغادية » (محمد الشنقيطي، 2017، ص58).

والفكرة حينما تتجسد في شخص ما؛ فإن جميع انحرافاته وسلبياته تنعكس على المجتمع إما من خلال رفض شريحة منه للفكرة بسبب ما ألصق بها من أخطاء شخص الزعيم وانحرافاته، وإما بالردة عن الفكرة واعتناق أفكار أخرى مناقضة ومضادة للأولى بسبب خيبة الأمل في الشخص الذي عجز عن تحمل مسؤوليته كاملة اتجاه الأفكار التي تجسدت في ذاته (محمد لعاطف، 2007، ص21)، وهذا هو خطر التجسيد الذي وضعه القرآن صراحة في الوعي الإسلامي بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران، 144] هذا التحذير ليس موجهاً هنا لتفادي خطأ أو انحراف مستحيل من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه من أجل الإشارة إلى خطر تجسيد الأفكار بحد ذاته (مالك بن نبي، 1988، ص82).

2.2.3 فيضان التعالي والغرور:

يتمثل وباء النخبة في التعالي والغرور، وهو من الأخطاء النفسية التي كانت ولا تزال تُعطل مسار النهضة، ويبلغ المرض غايته في الفتك بالأفكار حينما يتلبس بنفسية الملتزم بأحكام الإسلام ظاهراً فيرى

من حاله هذا أن التمكين لا محالة من نصيبه وإن تأخر زمانه، فيقع « في فيضان من التعالي والغرور .. حين يعتقد أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال، دون أن يحاول تعديل سلوكه وإصلاح نفسه» (مالك بن نبي، 1986 ب، ص 85)، فالانتماء للإسلام يُحتم على صاحبه طرد الكسل الفكري والفوضى في إنجاز أعماله، ويحثه على إقامة علاقة وطيدة بين الفكرة السليمة والعمل المتقن.

إن هذا المرض النفسي عندما تبتلى به الطبقة الفاعلة في المجتمع فإنه سيتحول إلى أزمة حقيقية بالنسبة لمطلب التغيير، لأن صاحبه لا يملك أن يرى مرضه هذا في نفسه لاستيلاء "الأنا" عليه وتحكمها به من جهة، ومن جهة أخرى فإنه سيقضي على الروح الجماعية للعمل الدعوي، يقول مالك بن نبي (1985، ص 40) « والعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول المشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين تُسوِّغُ "الأنا" » وهكذا عندما تستحكم الغقد النفسية في مجتمع معين، فإن جماعية عمله تغدو صعبة أو مستحيلة.

3.3. الأخطاء السياسية:

3.3.1 الثورة المضادة:

شغل تحليل الوضع السياسي للعالم العربي حيزاً مهماً من أفكار مالك بن نبي، وأهم قضيتين تناولهما بعناية هما: الاستعمار الفرنسي للجزائر والقضية الفلسطينية، لاعتبارات الانتماء الجغرافي بالنسبة للجزائر، والبعد الديني بالنسبة لفلسطين.

ولما كان الداء في كليهما هو تحليل عوامل سيطرة المحتل على الأرض، لفت مالك بن نبي الانتباه إلى خطورة الالتفاف على المشروع الثوري بمشروع آخر مُضادٍ له لإجهاضه وتشويهه، وهو مفهوم "الثورة المضادة"، هذا المفهوم الذي وظفه الاستعمار أحسن توظيف وبطرائق شتى للإجهاز على حركات التحرر.

ويمكن اكتشاف ثلاثة أشكال لتكوين الثورة المضادة في العالم الإسلامي عند مالك بن نبي:

أ- فتكون عن طريق بث المندسين لتحريف مسار الثورة وتشويهها ثم القضاء عليها، وفي هذا المعنى يقول: نحن نواجه في المجتمع الإسلامي في عهد ما بعد التحضر أخطاء مولدة، أي أنها أتت إليه من عالم ثقافي آخر، قام بدور المولد. ولا يُعتبر المُنْدُسُون في الثورة الفلسطينية، أو عبان رمضان في الثورة الجزائرية خطأين نابعين من اطراد ثورتين، وإنما خطآن أدخلا من الخارج، أي خطآن مُولدان (1988، ص 122). والمندس الذي هو جزء من العالم الثقافي لتلك الثورة أشد فتكاً من غيره لسرعة اندماجه وتأثيره، ولو كان ذلك منه عن حسن نية، لكن الاستعمار وظفه دون أن يشعر بموقعه السيئ على الثورة ومجمعه.

ب- وقد توجد الثورة المضادة لا لثضاد ثورة حاصلة بالفعل، بل لتثدها قبل وجودها، فتستبق أمرها، يقول بن نبي (1988، ص 122): « وفي البلاد الإسلامية قد يولد التطور الثوري منذ يومه الأول على شكل

ثورة مضادة مُقنَّعة أُطلقت في الوقت المناسب؛ لتسبق إلى احتلال مراكز استراتيجية قبل أن تحتلها ثورة أخرى أصلية»، وهذا المظهر للثورة المضادة دقيق للغاية، يستغل الاستعداد النفسي الذي هبَّه الثوار الحقيقيون في الجماهير، ويمكن تَمَثُّله في بعض حركات المعارضة السياسية بالعالم العربي، والتي لا يُجدي نضالها السياسي شيئا غير تأخير بروز المعارضة الحقيقية الفعالة التي تحمل مشروعا طموحا ومدروسا.

ج- كما أن الثورة المضادة « يمكن أن تنشأ أيضا في ظل صورة أصيلة تفسح المجال شيئا فشيئا لثورة مضادة، تستخدم اسمها، وصفاتها المنظورة، ووسائلها لتقتلها، وتحل محلها محافظة على المظاهر التي تصبح الستار الذي خَلَفَهُ يستمر قلب مسار الاطراد في مرحلة ما بعد الثورة » (مالك بن نبي، 1988، ص122)، وهذا المظهر الأخير يتضح شيئا فشيئا في مرحلة ما بعد الربيع العربي الذي مرَّ ببعض شعوب الأمة العربية، وكيف أن الأنظمة الدكتاتورية العميقة طوعت وسائل تلك الثورة لتقضي عليها أو لثَمِّعِهَا حتى لا تعود على رؤوس الطغيان بالمفسدة والمحاسبة.

فالثورة عند مالك بن نبي لا تقوم من الارتجال (1988، ص122)، بل من تخطيط محكم، وبانضباط عال، يمكن من خلاله اكتشاف تلك الفجوات التي تنفذ منها الثورة المضادة، كما أن حسن النوايا وطيب النفوس لا يمكن أن تستحيل سذاجة مُقنَّعة باسم الدين يُبَرِّزُ بها الظلم والطغيان، وتكون سببا في التعدي على ما أحكم بنيانه من أمر الإصلاح والتغيير.

والحديث عن هذا الأمر في البلاد الإسلامية يُعد ضربا من التنكر للثورة ولقاداتها، فالتوجه النقدي يكون دائما مذموما وغير مرغوب فيه، يقول مالك بن نبي (1988، ص126): « ولا مجال للنقد في الحياة السياسية لبلاد العالم الإسلامي، خصوصا حينما يكون المقصود الحفاظ على ثورة مضادة في طريقها إلى التكوين في الظلام الذي لا غنى عنه لانتشارها، أو الحفاظ على أسباب ثورة مضادة تمت فعلا ».

فقد مسار أي ثورة عن طريق تلمس أخطاء قادتها وتجاوزاتهم يعد أمرا ضروريا وعاملا إيجابيا، حتى لا تتولد الثورة المضادة.

3.3.2 الارتهاق للزعامة:

قام مالك بن نبي بتحليل نشاط الاستعمار على مستوى الخريطة السياسية للبلدان المستعمرة، ونبه إلى المستوى النفسي الذي يتحكم في توجيه الجماهير، فظهور المستعمر في ساحة النشاط السياسي لم يعد مجديا ولا نافعا للتحكم في الجماهير؛ فكلما ازداد الوعي تبعه النزوع للتمرد على سلطته، فيلجأ لتوظيف أو فسح المجال لشخصية بديلة عنه ووفية لخططه، ترتب لها الجماهير، وتنقاد لسياسته الموجهة، وتتجاوب معها.

ويوضح ذلك مالك بن نبي بأن الاستعمار يُعد في نظر كل مسلم "الشیطان"، وما ينبغي أن نضيفه فوراً بأن الاستعمار يعلم ذلك جيدا، وهو فوق ذلك يعلم عنا أشياء كثيرة نجهلها نحن أنفسنا، وخصوصا تلقائية استجابتنا السلوكية، فمثلا هو يعلم بأنه حينما يقول الشيطان: اثنان زائد اثنين يساوي أربعة، فإن المسلمين

سيقولون: ليس هذا صحيحا لأن الشيطان قال ذلك. وعلى العكس من ذلك؛ فإذا ما ارتفع صوت له سمة الصديق يقول: اثنان زائد اثنين يساوي ثلاثة؛ فإن المسلمين سيقولون هذا حق لأن هذا الرجل الصادق قال ذلك (1988، ص 123)، والاستعمار يحسن توظيف هذه الخاصية النفسية باقتدار، يمثل لها مالك بن نبي بالمرشح السياسي، حيث الحاوي هو الاستعمار، مختبئ في غرفة الملقن، ليس عليه إلا أن يحبك الخدع لقاعة المشاهدين (1988، ص 124).

ومن ذلك أن الاستعمار يقف على ثغرات الزعامة المؤثرة، ويدرسها حتى يتمكن من توظيفها، لتكون بيده سلطة تدميرها ذاتيا حينما لا تستجيب لمخططاته، وذلك بزرع الأخطاء في شكل حقائق كانت غائبة عن الرأي العام، و« هذا التدمير الذاتي ليس دائما ولا غالبا نهاية جسدية، ولكنه سقوط سياسي للرئيس يتدرج بطريقة تنسحب معها، وتفقد الفكرة قيمتها بخطئه حين جسدها في ذاته بأخطائه. أي في الحقيقة نتيجة الأخطاء المولدة (erreurs induites) التي أدخلت إلى سياسته بفضل جهاز الصمامات الذي وضعه الاستعمار...» (مالك بن نبي، 1988، ص 126).

ويبدو أن هاته الظاهرة السياسية لم تنقطع عن عالمنا الحاضر، وإن تغيرت الأوجه والمعطيات، وهي تأخذ طرفا من تاريخنا الإسلامي الغابر، الذي انكفأ في مرحلة ما على تقديس عالم الأشخاص خصوصا بعد مرحلة عصر الموحدين، يقول مالك بن نبي (1988، ص 124): « والعالم الإسلامي الحاضر يشتمل على أكثر من انحراف من هذا النوع، فباكستان اقتضى لوجودها انحراف كهذا، أي خطأ مولد في نفسية الضمير الإسلامي المكيف، والمرتهن بالزعيم ».

إن شيوع عالم الأشخاص على حساب عالم الأفكار -بتعبير مالك بن نبي- (1988، ص 124) حريّ بهتديم الثورة بمجرد تلاشي زعامتها، والارتهان للزعامة وحدها يعتبر دعامة متهاكة ما تلبث أن تسقط أو تخبو قوتها التأثيرية، وبذلك تفقد الفكرة قيمتها لأنها لم تتحرر من عالم الأشخاص.

4. علاج الأخطاء المولدة:

يأتي علاج الأخطاء المولدة في فكر مالك بن نبي عبر ثلاثية موازية لدوافع ومضامين الخلل في مسار النهضة، فإذا كان أفضل العلاج ما جانس الداء ونُزعت منه سُمِّيَّتُهُ، فإن النهضة تتطلب فعالية ثقافية متجاوبة مع محيطها لا إجهازا على الثقافة، ووعيا سننيا بالتاريخ وأحداثه ومطَبَّاتِهِ لا تعديا على الذاكرة لغاية التبرير، وترشيدا لعمل الجماعة لا تشتيئا وهدرًا للقوى والطاقات الفردية، وهو ما سيتم بيانه في العناصر الآتية.

1.4 الفعالية الثقافية:

المقصود بالفعالية الثقافية أن يتولى المثقف تسيير المشهد الثقافي في وسطه الاجتماعي، لأن المثقف هو الأقدر على وعي أسباب النهوض وعوامل التخلف، وهو الأنسب لبيث الوعي في نفوس الجماهير، فأعمال ابن خلدون مثلا كانت ستعتبر مفتاحا لنهضة أي أمة لو أن مثقفيها اهتموا بها الاهتمام الملائم وبشوها في عقول الجماهير، لكن تراث ابن خلدون ظل حروفا ميتة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية القرن

التاسع عشر (مالك بن نبي، 1985، ص 47).

فالمثقف ينبغي أن تكون كبرى معاركه هي بث الوعي لتشكيل البيئة الملائمة لنضوج الأفكار المثمرة، وأساس ذلك هو التواصل الفعال والقلم المعبر عن قضايا عصره، وقد طرح مالك بن نبي في كتابه "مشكلة الثقافة" و"شروط النهضة" قضية مهمة، وهي مسألة "توجيه الأفكار" حيث اعتبرها من مشكلات الثقافة ومن أهم تحديات المثقف، وعلى أساسها يكون الفعل الثقافي الصحيح والمؤثر، ويُعرَّف التوجيه بأنه « تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت؛ والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية » (مالك بن نبي، 1986، ص 79).

وتوجيه الأفكار يقوم على إقامة التوازن الضروري بين الفكرة وتطبيقها العملي المراعي لزمانها وواقعها، « وليس يكفي مطلقاً أن ننتج أفكاراً، بل يجب أن نوجهها طبقاً لمهمتها الاجتماعية المتحدة التي نريد تحقيقها » (مالك بن نبي، 1984، ص 67)، ويضرب مالك بن نبي لذلك مثالا يتعلق بساحة العمل السياسي، حيث يحدث أن يعتلي المسرح مقول ماهر في الدجل السياسي، يكتشف طيبة البسطاء وسرعة انقيادهم، يؤيده في ذلك خفية الاستعمار خدمة لمصالحه، في مقابل شخصية أخرى تتمثل في رجل مخلص وهبته الطبيعة فكراً خصيباً، لكن لديه ذوقاً خالطه الترف العقلي لا يمكن من خلاله نسج ضروب من النشاط الاجتماعي من خلال أفكاره، فكلما الشخصيين يمثل نموذجاً لانعدام الفاعلية (1984، ص 68).

فالفكرة الصحيحة تتطلب توجيهاً سليماً لها في الواقع حتى تكون لها الفعالية المؤثرة، وتغييبها أو تغيب أصحابها مؤذن بفساد الوسط السياسي، لأنه حينئذ سيتغذى على الذاتية والنزعات النفسية، ولو تأملنا أمراض الساسة في عصرنا الحاضر لوجدناها تؤول إلى هاته المعادلة.

ومن مقتضيات الفعالية الثقافية في البيئة الإسلامية أن يُحسن المثقف توظيف المبادئ الإسلامية وقيمها السامية في قالبٍ مستساغٍ للتطبيق، مناسبٍ لواقع الناس وظروفهم، يقول مالك بن نبي: « ولا يكفي أن نعلن عن قدسية القيم الإسلامية، بل علينا أن نزودها بما يجعلها قادرة على مواجهة روح العصر، وليس المقصود أن نقدم تنازلات إلى الدنيوي على حساب المقدس، ولكن علينا أن نحرر هذا الأخير من بعض الغرور الاكتفائي، والذي قد يقضي عليه » (1988، ص 112).

فالإسلام يحث على العمل، ويدفع المؤمن إلى أن يتحلى بالروح الإنجازية ويحارب فيه الاتكالية، وهكذا « المجتمع الإسلامي مدعوٌ لأن يستعيد تقاليده العليا، ومعها حس الفعالية » (مالك بن نبي، 1988، ص 113).

وإذا كانت النكسات المتتالية التي تعرضت لها الأمة في عصر الانحطاط قد خلفت فتوراً ولا مبالاة لدى الجماهير بمشكلاتهم الجوهرية (محمد لعاطف، 2007، ص 165)؛ فإن ذلك يقتضي من المثقف أن يتبنى الطريقة الأنسب في تفعيل الحس الدافع للعمل، والإبداع والمجافي لأخطاء الماضي، وهذا ما يتم

عن طريق توظيف «إيديولوجية تعطي التوتر الضروري لمجتمع يقوم بإنجاز مهمات كبرى؛ لأنها تخلق الفرد التواق، وهو عكس الفرد المائع الذي يركب مجتمعا ارتخت أوتاره» (مالك بن نبي، 1978، ص 87)، والمجتمع الذي ارتخت أوتاره هو الذي انغمس في أخطاء سابقه، ولم يتبن استراتيجية التغيير، لأنه لم يجد من المثقف الدعم الكافي لتبصيره بمرحلة النهوض.

2.4 الوعي السنني :

يعد الوعي بسنن الله تعالى في الآفاق والأنفس ضروريا بالنسبة للعمل الإصلاحي والنهضوي عموما، ذلك أن فقه السنن يتطلب فقها بالتاريخ وتعاملا متبصرا مع الواقع، يقول محمد رشيد رضا (1990، ج 07/ص 417): « وأما العلم بسننه تعالى في خلقه؛ فهو وسيلة ومقصد.. وأعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء ».

فالوعي بالسنن يقي صدمة الوقوع في نفس المطبّات والأخطاء السابقة، وهذا الوعي يتطلب تأنيا في قراءة الأحداث الماضية، وتحررا من العاطفة الاندفاعية المبرّرة والذاتية القاصرة، فمن لا يقرأ تاريخه بعين الناقد لا يمكن له أن يصل إلى مستوى الوعي الذي يقوده إلى القرارات الصائبة.

وكم عانى المسلمون من قصور الوعي السنني واضطرابه لدى الصفوة الفكرية والسياسية في ساحات الدعوة والدولة والمجتمع على حد سواء (الطيب برغوث، 2004، ج 03)، وقد أحسن مالك بن نبي (1986، ص 28) في صياغة عبارته الشهيرة « من سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة بينغ الصنم، والعكس صحيح أحيانا » لأنه ربط بين فقه السنن وإدراك متقابلة الفكرة الصنم، التي أبت إلا أن تميل إلى كفة الصنمية مدة طويلة في عالمنا العربي والإسلامي.

وعالج بن نبي فكرة السننية في إطار نظرية الدورة الخالدة لقيام الأمم وانحطاطها، وكيف أن نقطة الانطلاق الحضاري تتحدد بمعرفة مكاننا من دورة التاريخ، ولذلك كان « أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا » (مالك بن نبي، 1986، ص 47)، فالوعي بقوانين التاريخ وعوامل الانحطاط وأسباب التقدم يجتمع كله في الوعي السنني الذي ينبغي أن يتحلى به قادة الأمم ورواد الحضارة، « ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء » (مالك بن نبي، 1986، ص 47).

ومن تفعيل فقه السنن إعادة الاعتبار لأحداث التاريخ، وقراءتها قراءة متأنية، ومحاولة وعي الروابط بين الأحداث المتتالية، وكيف أثر الحدث السابق في اللاحق؛ للاستفادة منه في ميدان الدعوة والتغيير، فنظرنا إلى التاريخ لا تؤدي إلى نتائج نظرية فحسب، بل إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة، فهي تحدد مواقفنا أمام الأحداث، وبالتالي أمام المشكلات التي تنجم عنها، ذلك أننا إذا نظرنا إلى التاريخ باعتباره مجرد حوادث تتعاقب، دون ما ربط جدلي بينها؛ فإن هذه النظرة تؤدي إلى نتائج معينة، ليست هي التي تنتج عن نظرنا إليه، حينما نعهده سيرا مطردا، تترتب فيه الحوادث ترتيبا منطقيا كما تترتب عن الأسباب

مسبباتها (مالك بن نبي، 1979، ص 130).

كما نبه مالك بن نبي إلى أن الحركات الإسلامية التي تقتحم المجال السياسي لإقامة الحكم الإسلامي ينبغي لها أن ترمي السنن أكثر من الترويج والاعتماد على الخطاب الوعظي العاطفي، فيقول: « من الواضح أن السياسة التي تجهل قواعد الاجتماع وأسسها لا تستطيع إلا أن تُكوّن دولة تقوم على العاطفة في تدبير شؤونها، وتستعين بالكلمات الجوفاء في تأسيس سلطاتها، ولن نستطيع فهم هذه الملاحظات الاجتماعية إلا إذا فهمنا الآية الكريمة التي اتخذها العلماء شعارا لهم في تأسيس دعوتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] » (1986، ص 31).

وترتبط السنن بمفهوم آخر يتعلق بالتسخير، « فإن الله عز وجل سَخَّرَ هذا الكون للإنسان عن طريق توظيف هذه السنن، وتتبع حركتها، وملاحظة كيفية عملها وتعاقبها فيما بينها؛ لتحقيق مستوى استخلافي أرقى في كل مرة يتجاوز الإنسان سنة تاريخية أو كونية إلى سنة أخرى » (بدران بن الحسن، 1999، ص 174)، ومالك بن نبي كان حريصا على هذا الجانب من فقه السنن، لأن فيه تطويعا لقوانين الكون لخدمة الإنسان. وما محاربته للروح الاتكالية والمُخذلة إلا محاولة منه لتصحيح بوصلة الجهد الإنساني فكرا وعملا، « فالجهد الإنساني ما لم يرتق إلى مستوى الوعي بسنن التسخير والاستخلاف، اكتشافا وفهما واستثمارا؛ لن يكون جهدا تجديديا ذا نفس حضاري، ذلك لأن حركة التدافع والتداول الحضاري التي تطبع الحياة الإنسانية محكومة بهذه السنن بشكل مطرد لا يتبدل » (الطيب برغوث، 2004، ص 82).

والحديث عن تكاملية المنهج السنني في فكر مالك بن نبي يفضي إلى بسط كل أفكاره؛ لأنه كان منسجما معها في رؤيته الحضارية التجديدية، وهذا ما يحتاج لمزيد بحث ومدارسة في تراث مالك بن نبي.

3.4 ترشيد الفكر الحركي :

تلعب الحركات الإسلامية دورا مهما في ترشيد مجتمعاتها وتسيير المشهد الحضاري، سواء في المجال الدعوي أو السياسي أو الاجتماعي، غير أن نشاطها باعتباره جهدا بشريا يحتاج للمراجعة المرحلية الدائمة، حتى لا يقع في الأخطاء المولدة، فالفكر الحركي إنما هو نتاج علاقة الارتباط بين الفرد والجماعة، وهذه العلاقة قد تكون سلبية إذا طغت عليها الأخطاء السابقة، وتترتب عليها نتائج هادمة، وقد تكون علاقة إيجابية تكاملية، محققة للهدف منها.

ولذا فإن ترشيد الفكر الحركي يقوم على دعامتين اثنتين:

- أولاهما: تحرير الفكر حتى يكون ذا فعالية وتأثير، « وإذا ما ظل هذا الفكر متبطلا، منعدم التأثير، بقي النشاط حركة فوضى وتزاحما يبعث على الضحك والراء، وليس سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي » (مالك بن نبي، 1986، ص 88)، فالتحجير على الفكر لا ينتج إلا عن أزمة ثقة في كفاءة العقول المبدعة التي تبحث عن الحلول الملائمة للأزمات الحاضرة، وهو ما يدفع الحركات الدعوية العاملة إلى استيراد النماذج الدعوية الناجحة من خارج إطارها المعرفي والثقافي، وهنا محل الخلل؛ لأن

هذه النماذج لا تحقق غالبا الغاية المرجوة، فتدخل في حالة من الفوضى والغثائية، على الرغم من أن هذه الحركات الدعوية تملك مخزونا فكريا خصبا يحتاج للتحرير وبعث الثقة فيه.

- ثانيا: التوفيق بين الفكرة والعمل، حيث توزع الجماعة طاقات الأفراد فيما يتناسب مع قدراتهم الذاتية، فليس يكفي أن تقوم الجماعة بإنتاج الأفكار أو التنظير المجرد، وإنما ينبغي لها أن تُفَعِّلَ الفكرة طبقا لمهمتها الاجتماعية.

وهكذا فإن الفكرة تتلاقح بغيرها لتثمر العمل الواعي والحركة الراشدة، ومتى غُيِّت جماعية التفكير آل الأمر إلى ما سبق بيانه من أخطاء فردية، إذ الجماعة تبصر الفرد بحقيقة ذاته وتعكس له نفسيته فيراها ماثلة في إخوانه، وتجعله يزن خطواته لأنها تتوازي مع سير غيره.

ومن آثار ترشيد الفكر الحركي الخروج من ظاهرة "تكديس الأفكار" التي تعاني منها مجتمعات مرحلة الانحطاط كما عبر عن ذلك مالك بن نبي، فالتكديس عنده غير قاصر على الأشياء بل يتعدى ذلك إلى الأشخاص والأفكار (مالك بن نبي، 1979، ص 167).

فالدعوة الإسلامية اليوم مُلْزَمَةٌ بأن تقلل من أخطائها قدر الاستطاعة، عن طريق التوفيق بين الفكرة الصحيحة والعمل المسدد، وهجر المثالية المفرطة، والخيال المجنح، والمبادرات الاستعجالية غير المدروسة، والتبسيط الساذج لواقع بشري مركب ومعقد (الطيب برغوث، 2017، ص 77)، فالوقت ليس وقت حماس مبتور، ولا خيال مريض، أو ردود أفعال عاطفية ذاتية فجأة، بل آن الأوان لتصحيح مسار النهضة وتقويم الأخطاء.

هذا ما تيسر إيراده من أفكار حول الأخطاء المولدة في فكر مالك بن نبي، ولا شك أن استقراء كل كتابات مالك بن نبي يؤدي إلى اكتشاف المزيد من الأخطاء الهادمة، والعديد من الحلول النافعة، لا بد من اكتشافها وحصرها والقيام بدرستها دراسة تحليلية إسقاطية على حاضر العالم الإسلامي.

5. خاتمة:

- لقد حرص مالك بن نبي على تشخيص مشكلات الحضارة وتحليل آثارها أكثر من حرصه على إيجاد الحلول الجاهزة والمعلبة لتلك المشكلات، وطبيعي أن ينتقد البعض فكر مالك بن نبي في هذه القضية، غير أن الذي يمعن النظر في ما طرحه البحث من مشكلة الأخطاء المولدة يجد أن العلاج الأجدى يكون في إدراك طبيعة المشكلة واستيعاب خطرها، حتى يتم تحصيل أسباب الوقاية، واتباع العلاج الأنسب لواقع حاله وزمانه.

- إن الأخطاء المولدة تنتج عن الخلل في عاملي الارتقاء الروحي والوعي السني، فمنهما تنفر تلك الأخطاء، كما أن الوقاية من الأخطاء المولدة يمر عبر تنمية الجانب الأخلاقي والسلوكي للفرد والمجتمع، والارتقاء التدريجي بوعي واهتمامات أفراد المجتمع عبر دوائر انتمائهم إلى أوسع نطاق ممكن، وهو ما ينعكس إيجابا على مستوى الحصانة الثقافية والأخلاقية التي تكون أكبر دعامة وأقوى حاجز في مواجهة التحديات المولدة في نطاق المجتمع الإسلامي.

- إن فن تشريح المشكلات يظهر في كثير من الأحيان بساطتها، ويجعلنا بسهولة نتخلص منها، وهو الفن الذي برع فيه مالك بن نبي.
- إن نجاح عملية التجديد الحضاري للأمة مرتبط بصفة جذرية بالتحول النوعي في المنظومة الثقافية للمسلم.
- أعطى مالك بن نبي للوعي السنني اهتماما كبيرا، فتحدي السنن كامن في فقهها وحسن التعامل معها.
- وفي الأخير فإن المشروع الفكري النهضوي لمالك بن نبي يقتضي تحيين أفكاره، قصد تسخيرها لمتطلبات الحاضر، وتكييفها للتجسد في الواقع، ويستلزم ذلك تقديم المزيد من الدراسات المتخصصة في المجالات المختلفة التي تناولها بن نبي في كتبه.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن، (1408هـ)، جامع العلوم والحكم، (ط.01)، بيروت، دار المعرفة.
- ابن فارس، أحمد بن زكريا، (2008)، مقاييس اللغة، (د.ط.)، القاهرة، دار الحديث.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (د.ت.)، لسان العرب، (د.ط.)، بيروت، دار صادر.
- باي، محمد بغداد، (2006)، التربية والحضارة، (ط.01)، الجزائر، دار عالم الأفكار.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (1987)، الجامع الصحيح المختصر، تح: مصطفى ديب البغا، (ط.03)، بيروت، دار ابن كثير، اليمامة.
- بدران، بن مسعود بن الحسن، (1990)، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري أنموذج مالك بن نبي، (ط.01)، قطر، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، (1987)، الصحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، (ط.04)، بيروت، دار العلم للملايين.
- الشنقيطي، محمد بن المختار، (2017)، الخلافات السياسية بين الصحابة، (ط.04)، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- الطيب، برغوث، (2004أ)، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، (ط.01)، الجزائر، دار قرطبة.
- الطيب، برغوث، (2004ب)، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، (ط.01)، الجزائر، دار قرطبة.
- الطيب، برغوث، (2004ج)، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية، (ط.01)، الجزائر، دار قرطبة.
- الطيب، برغوث، (2017)، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، (ط.05)، الجزائر، دار النعمان.
- كرين بيتون، (1984)، تشكيل العقل الحديث، (شوقي جلال، مترجم)، الكويت، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، (1998)، الكليات، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، (ط.02)، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- لعاطف، محمد، (2007)، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في

- الفلسفة، جامعة الجزائر، الجزائر.
- مالك، بن نبي، (1978)، بين الرشاد والتهيه، (ط.01)، دمشق، دار الفكر.
 - مالك، بن نبي، (1979)، تأملات، (ط.01)، دمشق، دار الفكر.
 - مالك، بن نبي، (1984)، مشكلة الثقافة، (ط.04)، دمشق، دار الفكر.
 - مالك، بن نبي، (1985)، ميلاد مجتمع، (ط.02)، دمشق، دار الفكر.
 - مالك، بن نبي، (1986 أ)، شروط النهضة، (ط.02)، دمشق، دار الفكر، دمشق.
 - مالك، بن نبي، (1986 ب)، وجهة العالم الإسلامي، (ط.01)، دمشق: دار الفكر.
 - مالك، بن نبي، (1988)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، (ط.01)، دمشق، دار الفكر.
 - مالك، بن نبي، (2007)، العفن، (ط.01)، الجزائر، شركة دار الأمة.
 - محمد رشيد رضا، (1990)، تفسير المنار، (د.ط)، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
 - مسقاوي، عمر كامل، (2013)، في صحبة مالك بن نبي، (ط.01)، دمشق، دار الفكر.
 - مسلم، بن الحجاج النيسابوري، (د.ت)، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
 - وقيدي، محمد، واحميدة، النيفر، (2002)، لماذا أخفقت النهضة العربية، (ط.01)، دمشق، دار الفكر.